كيف تُفسد الفطرة

كتبه غريب بتاريخ الخميس ١٨ ذي الحجة ١٤٤٢

يولد الإنسان على الفطرة, هي ميزانه الذي يقيس عليه, فتراه يتقبل التوحيد, وينفر من الشرك, فإذا سألته عن الإسلام, قال لك إن الإسلام هو اتباع القرآن والسنة, فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام الذي علينا اتباعه

وإذا سألته عن الفرقة في الدين وموقفه منها, تجده ينفر منها, ويقول لك الدين واحد وليس أديان مختلفة.

إنه في أجوبته السابقة لا يعتمد على علم تعلمه, وإنما على فطرته وحسب, فهو قد يكون غير مهتم للدين أصلا, ومتبعاً لهواه, ولكن تصوره عن الدين – الذي لا يتبع – تصور سليم, إذا قرر يوما أن يتوب إلى الله سيجد الطريق سالكاً نحو الهداية.

لنفترض أن صاحبنا هذا لسبب ما, قرر أن يتوب إلى الله, ويتعلم دينه حتى ينجيه الله من العذاب, فماذا سيفعل؟!

على الأرجح سوف يذهب إلى إمام جامع الحي يطلب منه النصح, وسوف يبدأ ما يعتقد هو أنه رحلة طلب العلم عند المشايخ, وبعد عمر طويل من التعلم على أيديهم تسأله نفس الأسئلة السابقة فيكون الرد غالبا على النحو التالي:

الإسلام هو مزيج من اتباع القرآن والسنة واجتهادات العلماء, والذي ينكر اجتهادات العلماء يريد هدم الدين.

والاختلاف في الدين رحمة, والمذاهب كلها على الحق, لأن كلهم مجتهد ومأجور على اجتهاده وإن أخطأ.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان صاحبنا هذا يطلب العلم أم يطلب الجهل؟!

كيف فسد تصوره للإسلام, وكيف فسدت فطرته؟!

قبل أن نجيب على هذا السؤال, نقرأ هذا المثل الرباني المنطبق عليه تماما:

﴿ مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي استَوقَدَ نارًا فَلَمّا أَضاءَت ما حَولَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنورِهِم وَتَرَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبصِرونَ۝صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا يَرجِعونَ ﴾

البقرة: ١٧-١٨

لقد كانت الفطرة السليمة هي نوره الذي استوقد, وكان يستطيع بها تصور الأشياء تصورا سليما, ثم ذهب الله ببصيرته وبقي أصم أعمى أبكم لن يستطيع أبدا الرجوع إلى ما كان عليه من قبل.

إن هذه الآية والتي بعدها تصف حال المنافقين الذين تحدثنا عنهم عندما تحدثنا عن الآيات التي قبل هذه الآية, ونتيجة لتطابق المثل مع صاحبنا نفهم أنه مر بظروف مشابه لما مروا به, وهذا ما سوف نكتشفه عند مراجعة ظرف المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا استثنينا رأس المنافقين الذي يرى في الإسلام زوال ملكه, فإن بقية المنافقين لم يضرهم وجود الإسلام في المدينة ابتداءً, فهم لم يُسلبوا الملك, كما سُلبه زعيمهم, ومن ثم فإنه من المفترض مبدئيا أن لا يكونوا منافقين, ويكونوا مؤمنين كحال البقية.

فهم على الفطرة مثل غيرهم, والفطرة تدفعهم للإيمان بالله, واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولكن كان اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا صعبا جدا بالنسبة لهم, فهو يعني خسارة الدنيا نظرا لما يكلفه من تضحيات جسام, هم ليسوا مستعدين لبذلها.

وهنا يأتي دور شياطينهم أحبار اليهود, ليقدموا لهم المبرر العلمي كما يرونه لعدم اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم, وذلك لكون أحبار اليهود يعتبرون أهل العلم في ذلك الزمان.

يبدأ المنافق في اتباع أحبار اليهود, ومن ثم يذهب الله بنور بصيرته ويبقى في الظلمات لا يستطيع الخروج منها أبداً.

إنما حدث للمنافقين ساعتها هو نفس ما حدث لصاحبنا, مع فارق أن المنافقين كانوا يخفون كفرهم, ولذلك سُمّوا منافقين, أما صاحبنا فهو يظهر كفره ويعتبره هو الإسلام الصحيح, ولذلك هو كافر وليس بمنافق, وإليك كيف حدث ذلك.

عند بداية مشوار إفساد الفطرة, الذي يسميه هو مشوار طلب العلم, يكون صاحبنا أمام اختبار من أصعب الاختبارات

فهو إما أن يتمسك بفطرته السليمة، ويرفض ما يقوله المشايخ، وهذا يعني خسارة الدنيا بالنسبة له، فهو سوف يصبح منبوذا بين الناس، تماما كما اعتبر المنافقون أن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خسارة الدنيا بالنسبة لهم.

وإما أن يفرط في فطرته ويتبع المشايخ، ويحظى بالحظوة الاجتماعية والتقدير من المشايخ، وربما الثناء عليه، وتزكيته حتى ينال المكانة الاجتماعية المرموقة، والمشايخ سوف يساعدونه في إفساد فطرته تدريجيا وذلك من خلال:

أولا سلبه الثقة في نفسه، فهو جاهل ولا يفهم كما يفهم المشايخ، وعليه فإنه يجب أن يثق فيهم ثقة عمياء

ثانيا ما عليه المشايخ هو ما عليه الأمة كلها، ومن ثم أكيد سوف يكون صحيحاً، فمن غير المعقول أن يكون هذا الجاهل الذي لم يثني ركبه عند العلماء أعلم من كل الأمة

ثالثا التحذير من الكتب التي قد توقظ فيه حس النقد، وأولها القرآن والسنة، فهو عليه أن يتأكد أنه لا يستطيع فهم القرآن إلا من خلال المشايخ، ولو بدا له أنه فهم آية معينة أو حديثا، عليه أن يكذب نفسه ولا يصرح بفهمه مطلقا.

من تلك الكتب أيضا كتب ابن حزم الأندلسي الذي يقوم بتعرية أهل الفرق، فهذه الكتب يحذر منها طالب العلم المبتدئ، لأنها سوف تؤخر عملية إفساد فطرته، ولا يسمح بها إلا لمن تأكدوا أنه صار أعمى تماما مثلهم.

ونظرا لما سبق فإن الاحتمال شبه الأكيد أن صاحبنا سوف يقرر التخلي عن فطرته، تماما ويساير المشايخ، وهنا يذهب الله بنوره ويصبح أصماً أبكما أعمى لا يستطيع أبدا أن يرجع لما كان عليه، وإن طال به الزمن سوف يمارس هو نفس المهمة فيفسد فطرة من يأتيه طالبا للعلم.

إن المنافقين وصاحبنا الكافر يعيشون حالة من الترقب والقلق الدائمين وصفها الله في قوله:

﴿ أَو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَرَعدٌ وَبَرقٌ يَجعَلونَ أَصابِعَهُم في آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ وَاللَّهُ مُحيطٌ بِالكافِرينَ۝يَكادُ البَرقُ يَخطَفُ أَبصارَهُم كُلَّما أَضاءَ لَهُم مَشَوا فيهِ وَإِذا أَظلَمَ عَلَيهِم قاموا وَلَو شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمعِهِم وَأَبصارِهِم إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾

البقرة: ١٩-٢٠

فهم قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة لعدم اتصالهم بالله, فقد قطعوا العلاقة بينهم وبين اللّٰه يوم فضلوا الدنيا على الآخرة, يوم اشتروا الضلالة بالهدى

ومن ثم فإنه من الطبيعي أن يكونوا في قلق دائم, ولو أخفوه وراء ابتسامات مزيفة.

بعد أن يذهب اللّٰه بأبصارهم وسمعهم لن يستطيعوا أن يسمعوا صوت الرعد, ولا أن يروا نور البرق, ومن ثم فإنهم لم يعودوا يتأثرون بما حولهم, فقد ماتوا تماما وحينها يطمئنون لما هم عليه من باطل ويتحقق فيهم قول الحق سبحانه:

< اللّٰهُۖ يَستَهزِئُ بِهِم وَيَمُدُّهُم في طُغيانِهِم يَعمَهونَ >

البقرة: ١٥